**جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية**

**قسم اللغة والأدب العربي**

**السنة الأولى ماستر**

**المحاضرة الثانية**

**الفنـون الشعريـة في عصر الدول المتتابعة**

استمرت القصيدة العربية تسير في خطها العام على نهج القدامى مضموناً وشكلاً في كثير من أغراضها التقليدية، فالمديح هو المديح، مطية للتعبير عن الإعجاب بذوي المكانة المرموقة، والرثاء هو الرثاء آهات ودموعاً، وإن دخلهما شيء من التجديد وكذا الهجاء والفخر. أما الشعر الديني فقد طرأ عليه تجديد أوسع سواء في مدائحه النبوية أم في شعر التصوف. ومن هنا فإن دراسة الفنون الشعرية في هذا العصر لا تكون صورة مماثلة لما كانت عليه في الأعصر السالفة، وإنما سنتبين من خلالها جديداً قليلاً أو كثيراً في المضمون والشكل، وسأوضح هذا من خلال دراستي للأغراض الشعرية الآتية:

1- الشعر الديني: إيمانياته وزهده، ومدائحه النبوية، وشعر التصوف فيه.

2- فن المديح.

3- الرثاء .

4- الهجاء.

5- الأدب الاجتماعي: أوضاع العاملين. الإخوانيات. الغربة والحنين. العلاقة بين المرأة والرجل. المكيفات.

6- فنون شعرية أخرى: الوصف. الفخر. الحكمة .

**أبرز أغراض الشعر**

كتب الشعراء في هذا العصر في معظم أغراض الشعر العربي وأضافوا ما استجد في عصرهم من قضايا أخرى، وأهم هذه الأغراض:

1-**الممارسة والنضال**

وهو غرض كان له من الأهمية المنزلة العظيمة بسبب صراع العرب المسلمين مع الفرنجة والتتار، إذ أن الشعراء حملوا على عاتقهم مهمة تحميس الجند من أجل الجهاد والنضال، وكانت المعارك التي وقعت بين المسلمين من جهة والتتار والصليبين من جهة ثانية مادة حية لهذه الأشعار والتصفح لشعر الجهاد والنضال في هذا العصر يجد كما كبيرا من الأشعار بعضها يبكي سقوط الخلافة، وبعضها يدعو إلى الجهاد من ذلك قول تقي الدين اسماعيل التنوخي:

**لسائل الدمع عن بغداد أخبارُ فما وقوفك والأحباب قد ساروا**

**تاج الخلافة والربع الذي سرُفت به المــــــــــعالم قد عفّاه إقفارُ**

ومن ذلك أيضا قول شهاب الدين محمود الكوفي:

**إن لم تقرح أدمعي أجفاني من بعد بعدكم فما أجفاني**

**إنسان عيني مذ تناءت داركم ما راقه نظر إلى إنســان**

وإذا كان الزنكيون والأيوبيون قد تولوا عبء الصراع مع الفرنجة ، فإن المماليك قد تولوا عبء الدفاع ومنزلة المغول ، وقد استطاع الملك المملوكي قطز أن يقضي على المغول ويردّ زحفهم بعد أن احتلوا حلب وحماة ودمشق ، وقد قام قطز بقتل رسل المغول الذين جاؤوا يدعونه إلى الاستسلام ، وكانت عين جالوت المعركة الحاسمة إذا اعتبرت من أهم معارك المسلمين ، ووصنعت في مصاف معركة اليرموك و القادسية والزلاقة، ومن الشعراء الذين قللوا في تلك الفترة الشاعر شرف الدين الأنصاري في مدح المنصور الثاني:

**جرّدت يوم الأربعاء عزيمة خفيت عواقبها عن الإدراك**

**وأقمت في يوم الخميس مبالغا في الجمع بين طوائف الأتراك**

وعلى الفرنجة والمغول، وقد قضى في إحدى المعارك على ثلاثة آلاف منهم في الجزيرة:

**سر حيث شئت لم المهيمن جار واحكم فطوع مرادك الأقدار**

**حملتك أمواج الفرات ومن رأى بحرا ســــــواك تقله الأنهار**

وقد فتح المماليك بعد الظاهر بيبرس بزعامة المنصور قلاوون طرابلس الشام، وبناها من جديد بعد أن خربها التتار وفتحت عكة من قبل الأشرف خليل ابنه ولمّا هاجم الفرنجة الاسكندرية عام (767هـ) وقتلوا قسما كبيرا منها، رثى لشهاب الدين ابن مجلة هذا الثغر قائلا:

**أتاها من الإفرنج سيون مركبا وضاقت بها العربان في البرّ والبحر**

**أتوا نخوها هجما على حين غفلة وباعهم في الحرب يصر عن فتر**

وقد صور شعر الحماسة الأحداث العامة في ذلك العصر وعبّر عن الآلام والآمال واتجه نحو التصنع والتلاعب اللفظي، وقد كان شعراء ذلك العصر يشعرون بالغربة عن أوطانهم بينما الحكام يعيشون بازدواجية، مع أن العواطف في شعر ذلك العصر كانت صادقة بسبب الأحداث الجسام. وأهم الصفات المشتركة بين قصائد ذلك العصر:

-الإشادة بالفتح والفاتحين.

- جعل عمل الفاتح خالصا لله.

-التهنئة بالنصر.

-وصف فرح الناس بالنصر.

-تصوير المدن المفتوحة.

-وصف المعارك حول القلاع.

-التأكد والتأكيد على إبادة الأعداء.

-التفاؤل بانتصارات جديدة.

-قفل القصيدة بالدعاء والثناء.

**2- المديح:**

ويتضمن هذا الغرض أنواع عدة:

**أ- مدح الحكام والعظماء:** وقد سار هذا المدح على طريقة الأقدمين طلبا للعطاء ولبلوغ المراتب الوظيفية عند السلاطين ولن تقعد معانيه الشجاعة والحكم والعلم، وقد أغار شعراء هذا العصر على معاني غيرهم واستباحوا ورجعوا إلى ظاهرة الوقوف على الأطلال أو الغزل أو وصف الطبيعة. يقول ابن نباته مادحا الشهاب محمود الشاعر الذي كان من كبار الإنشاء وكاتب السر للملك :

**إمامٌ إذا هزّ اليراع مفاخرا به الدّهر قال الدهر لست هناكا**

**علوت فأدركت النجوم فصفتها كلاما ففقت القائلين بذاكا**

ب- **مدح الأصدقاء والأقرباء**: وغالبا ما يكون أقرب إلى الصدق وإن كانت المبالغات تغزو معانيه، وتسيطر عليه الصنعة البديعية، من ذلك ما مدح به ابن نباته صفي الدين الجلّي.

**3-الرثاء:**

نظرا للأحداث الجسام التي مرت على الأمة الإسلامية وما حصل من معارك نتج عنها الموت والقتل والتخريب فقد واصل شعراء هذا الغرض فن الرثاء، فقد برز ثلاثة أنواع:

**- المراثي الخاصة:** التي قيلت في أناس أعزاء على قلب الشاعر كما في رثاء يحيى شرف الدين لزوجه فاطمة بنت عبد الله الموصوفة بالفضل والكرم .فيقول:

**وما فاطمٌ إلاّ الحور أخرجت لنعرف قدر الحور قمّت ردّت**

وكما في رثاء صفي الدين الجلّي لعبدٍ مملوك له، ربّاه من صغره حتى صار كاتبا فطنا:

**هدّ قلبي من كان يؤنس قلبي إذ نبذناه بالعــــــــراء سقيما**

**ونأى يوسفي فقد هذبت عبد مناي من حزنه وكنت كظيما**

**2- المراثي العامة:** وهي كثيرة تقوم على الإشادة بصفات المرثي وكريم مزاياه  
من خلال المبالغة والصنعة من ذلك قول ابن نباته في رثاء الملك المؤيّد:

ليت الجمام حبا الأيام موهـــــبة فكان يفني بني الدنيا ويبقيه

لهفي على الخيل قد وقت صواهلها حقَّ العزا فهو يشبجيها وتشجيه

**3- رثاء الممالك والمدن:** كما في رثاء بغداد التي سقطت بيد المغول:

**إن لم تقرح أدمعي أجفاني من بعد بعدكم فما أجفاني**

**إنسان عيني مذ تناءت داركم فما راقه نــــظرٌ إلى إنسان**

ومن ذلك أيضا قول تقي الدين:

**ناديت والسبي مهنوك يجرههم إلى السّفّاح من الأعداء وعّار**

**يا للرجال لأحداث تحدثونها بما غدا فيه إعـــــذارٌ وإنذارٌ**

1. **الغزل**:

أكثر منه الشعراء في العصر المملوكي فأفردوه حينا بقصائد مستقلة وجعلوه أحيانا في مطالع مدائحهم وقد كان هذا الغزل يطل برأسه من خلال العتاب والرضى والافتتان والشكوى تعبيرا عن المشاعر يحمل في طياته التقليد حينا والتجديد أحيانا أخرى، وقد انطلق شعراء هذا العصر بغزلهم من مفاهيم جمالية تقليدية غالبا وتحدث الغزل عندهم عن:

آ- **وصف محاسن الحبيب:** حيث شبّهوا وجهه بالبدر والشمس وشعره بالليل، ورحيق الثغر بالخمر، ونظرات العيون بالسهام والحواجب بالقسي، وقدّه بالرماح وصدغه بالعقربة. ومن ذلك ما قاله التلعفري:

**لو تنعق الشمس قالت وهي صادقة ما فيَّ فيها، وما فيَّ الذي فيها**

**هبني أماثلها نورا وفرط ســــــــنا من أين أملك معنى من معانيها**

1. **وصف أموال المحبين:** حيث جعلوا المحبّ يحزن وشوق وصبابة، وجعلو المحبوبة قاسية ظالمة لا تلين، وجعلوا وصله أبعد من الثريا

**ج- الحديث عن الوشاة والرقباء:** ومتاعب وعثرات الحب حيث اتهموا العذال بالبلادة، وجعلوا أعين الرقباء مخيفة نظارتها حاقدة وحاسدة، وذلك لينتهزوا الفرص و لينهلوا مما يطيب لهم.   
د- **الحديث التركي** **والمغولي والهندي والفارسي والإفرنجي والكردي والزنجي**: وتغيرت معايير الجمال من العيون النجلاء الحوراء إلى العيون الضيقة.

يقول ابن نباتة:

**وحبيب إليّ يفعل فــــعال الأعداء بالأجداء**

**ضيق العين إن رنا واستمعنا وعناء تسمّع النجلاء**

وكذلك وصفوا العيون الزرقاء كما في قول ابن نباته:

وأزرق العين يمضي حدّ مقلته مثل السنان بقلب العاشق الحذر

قالت صبابة مشغوف بزرقتها دعها سماويّة تمضي على قدر

هـ- **الإعراض عن ذكر الأسماء** كزينب ورباب وسعدى وهند وأسماء إلى أسماء جديدة هي واقع الحال يقول ابن نباته:

على ضيّق العينين تسفح مقلتي ويطربني لا زينــــــب ورباب

فيارشأ الأتراك لاسرب عامر فؤادي من سكني السكون خراب

و- **الحديث عن زيارة طيف المحبوب** وخياله في المنام واليقظة وفي ذلك يقول الحلّي:

**ما بين طيفك والجفون تواعد فيفي إذا خُيّرت أني راقد**

**إني لأطمع في الرُّقاد لأنه شرده يصار به الغزال الشاردُ**

**3- أغراض شعرية مختلفة:**

كتب شعراء هذا العصر في أغراض شعرية مختلفة وهي:

**1- الوصف** وقد تناول هذا الغرض الأحاسيس المرئية والباطنية حيث وصفوا المعارك وما يتعلق بها ، والطبيعة وما تحتوي عليه والمظاهر المدنية كالأسواق والولائم والشوق والألم وآلام الجوع وتقلبات الزمان. يقول النواجي القاهري في وصف مخدة:

**هي نفع ولذة للنفوس وحــــياة و راحة للجليس**

**كم نديم أراحته باتكاء وتواضعت عند رفع الرؤوس**

**2-الهجاء** :وقد برز بصورته الفردية واختفى بصورته القلبية وركّز على العيون والمثالب ومزج السخرية بذلك.

**3-الخمريات والمجون:** وهو من تواصل ذكره في هذا العصر بعد أن انتشر شرب الخمور وأصبح نوعا من التحضر والرقي ، ساعد على ذلك انتشار فلسفة انهزامية تدعوا إلى الاستمتاع بالحياة قبل زوالها بسبب ما حلَّ بإنسان ذلك العصر من تشريد وقتل وتدمير وخراب، وانتشرت مجالس الخمرة في الطبيعة وزال الحياء بحيث تقام هذه المجالس مصحوبة بالرقص والغناء في المنازل أو على برك الأنهار. يقول الشاب الظريف:

ناوليني الكأس في الصّبح ثمّ غنّي لي على قدحي

واشغلي كفّيك في وترٍ لاتهدّيها إلى السّبح

4**- الحنين والشكوى :** وقد كثر الحديث عن هذا الغرض بسبب انتشار الفقر والحرمان وتنكر الأصدقاء وغدر الزمان، يقول ابن نباته:

**أشكو لأنعمك التي هي للعفاة ســحائب**

**حالي التي يرثي العدوّ لها فكيف الصاحب**

-5- المطارحات والشتويّات والتهاني: وقد كثرت هذه المناسبات فتبادل الشعراء قصائد الأخوّة والمحبة، من ذلك ما قاله شهاب الدين لابن نباته:

**البرق في كانونه قد نفخ والثلج في جيب الغوادي نفخ**

**قد زمجر الرعد بآفاقه كأنه مما دهــــاه صـــــــــرخ**

فأجابه :  
**ما البرق في كانونه قد مدح والغيم في كفّ الثريا قدح**

**أضوأ من ذهنك نارا ولا أرق من لفــــظك كأسا طفح**

**6-الطرديّات:** وهي قصائد كتبها الشعراء في الصيد و وصف الخيول والفهود والكلاب المدربة. يقول صفي الدين الحلّي في وصف صقر:

**والطير في لجّ المياه تسري كأنـــــها سفائــــن في بحر**

**حتى إذا لاذت بشاطئ النهر دعوت عبدي فأتى بصقري**

7- **الألغاز والآحاجي :** وهي أبيات تحمل لغزا من الألغاز أو أحجية من الأحاجي من ذلك ما قاله ابن نباته للغز في علي:

**أمولاي ما أسمٌ جــــليٌّ إذا تعوّض عن حرفه الأول**

**لك الوصف من شخصه سالما فإن قلعـــت عينه فهو لي**

يكاد لم يسلم منها شاعر، ولم يخل منها ديوان، وكانت عنواناً على قدرة الشاعر على اختراع صورة لفظية تتوارى المعاني وراءها، وهي وسيلة من وسائل التسلية في المجالس، وربما عمد صاحبها إلى مكاتبة إخوانه بها، وطلب منهم أن يحلّوها. وتذهب الرسالة الحاملة للقصيدة اللغزية من بلد إلى بلد، وغالباً ما يعود الجواب بحل اللغز في قالب شعري، ويكون متبعاً بلغز آخر يطالب صاحبه بحلّه، وهكذا. كان من أعلام هذا اللون صفي الدين الحلّي والشَّرف الأنصاري وابن عنين (ت630هـ) ومحيي الدين بن عبد الظاهر (ت692هـ) وإبراهيم بن عبد الله القبراطي (ت781هـ) وابن حجة الحموي (ت837هـ).

**-شعر الحشيشة:** وقد أصبح هذا الغرض الجديد كالخمرة من أغراض الشعر، وأحد الموضوعات التي قالوا فيها القصيد.

**-التأريخ الشعري:** ويقوم على «حساب الجمل» في ضبط تاريخ واقعة بحروف تتألف منها كلمة أو جملة أو شطر، يكون مجموع جملها يساوي تاريخ تلك الواقعة، ويأتي الشاعر بهذه الكلمة أو الجملة بعد كلمة «أرّخ» أو مشتقاتها.

وترتب الحروف ترتيباً أبجدياً، أي: أبجد، هوز،حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ، وكل من هذه الحروف له قيمته العددية، والجديد في هذا اللون أن العصر العثماني فاض به، حتى نظم به كل من كان ذا قدرة على النظم، وأن بعض الشعراء أتوا بالعجب العجاب. وفي كتاب «سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر» لابن معصوم قصيدتان في التأريخ الشعري كل منهما آية في بابها.

شاع في العصر المملوكي والعثماني (نظم العلوم)، فعلم النحو يسبك في ألفية، والفقه كذلك، والفرائض والمنطق وسواها، وغالباً ما تكون هذه المنظومات من بحر الرجز ليسهل حفظها. وقد يأتي بعض العلماء إلى واحدة من هذه الأراجيز فينشئ عليها شرحاً، ويأتي آخر ويضع حاشية، وثالث يكتب حاشية على الحاشية، وخير مثال على ذلك ألفية ابن مالك.

**النقد الاجتماعي**

اتخذ هذا اللون في الغالب، صورة الشعر الضاحك تارة والساخر أخرى والمر في ثالثة. فالوضع السيء الذي كان يعيش فيه الناس، والشعراء منهم، من فقر وبؤس ومصادرات واستبداد وقطع طرق وانتشار لصوص، واستيلاء أعاجم على حكم الأرض العربية، وفساد في الدوائر، وانتشار رشوة، وما أشبه ذلك، دفع الشعراء إلى التعبير عن هذه المآسي بشيء من التّقيّة حيناً، والصراحة حيناً آخر، بهذه القوالب المنظومة.

**ومن الشعراء الذين اشتهروا بالنقد ابن قلاقس (ت567هـ)**، وابن عنين،وأبو الحسين الجزّار (ت679هـ)، والبوصيري، وابن دانيال (ت710هـ) والحلّي، وابن سودون اليشبغاوي (ت868هـ)، وعامر الأنبوطي.